الهايكو والدهشة

أظن أن مفهوم الدهشة من المفاهيم التي يُساء استعمالها كثيرا في الآونة الأخيرة فيما يتعلق بالنصوص القصيرة بطبيعتها مثل القصة القصيرة جدا والقصة الومضة والومضة القصصية وقصيدة الهايكو. فالدهشة التي تتولد لدى القارئ صفة أساسية في أي إبداع أصيل، طويلا كان أم قصيرا، وفي كل أنواع الأدب، ذلك أنها تدل على أن الكاتب استطاع أن يصل إلى مناطق تعبيرية وأسلوبية وإنسانية تجعل القارئ يقول: "ما أروع هذا الكاتب! استطاع أن يصل إلى منطقة إنسانية وتعبيرية متميزة لم يلتفت إليها أحد من قبل!"

ومن مظاهر إساءة الاستعمال مظهران يمكنني أن أرصدهما:

أولا، هناك خلط بين الدهشة والمفارقة. وتكاد الدهشة تساوي المفارقة في معظم الحالات عند الكلام على أي

منهما. والمقصود بهما دهشة ظاهرية أو بالأحرى إدهاش ظاهري للقارئ يكون من خلال التلاعب بالألفاظ وتقديم المشهد بطريقة شعرية (الهايكو) أو قصصية (الومضة القصصية؛ القصة القصيرة جدا) أو تلخيصية (القصة الومضة) تجعل فيها غرابة تلفت انتباه القارئ. وهذا يقودنا إلى المظهر الثاني.

ثانيا، هناك خلط بين الدهشة والتغريب. والتغريب مفهوم نشأ في مدرسة الشكلية الروسية في روسيا في مطلع القرن العشرين، ويُترجم إلى الإنجليزية بلفظ defamiliarization أي نزع الألفة، والمقصود به أننا في حياتنا اليومية نتعامل مع الأشياء على أنها مألوفة لدينا ولا يوجد فيها ما يسترعي الانتباه نظرا لأننا نعيش بروتينية، وعلى الأدب أن يقوم بتقديم المألوف بطريقة تجعله غير مألوف، أي نراه في النص كما لو كنا نراه لأول مرة. ومن الجدير بالذكر هنا أن مدرسة الشكلية الروسية كانت ردَّ فعلٍ على الاتجاهات الماركسية والشيوعية والاشتراكية التي

كانت تنظر إلى الأدب على أنه مجرد ترويج لأيديولوجية ما، وهي في الغالب الأيديولوجية الاشتراكية أو الشيوعية. وكأي رد فعل، كان هذا التغريب مُبَالغا فيه، وبدأ بالتدريج يفقد طزاجته وتحول إلى الافتعال.

وبوجه عام، أي دهشة شكلية ستفقد قدرتها على البقاء والحياة إذا لم تقترن بدهشة إنسانية أو نفسية أو فلسفية: أي أن هذه الدهشة الشكلية لا بد أن تقترن برؤية إنسانية أو فلسفية أو إنسانية أو نفسية أو تعبيرية تجعلها متعددة الأبعاد وقابلة للبقاء كأدب إنساني يتجاوز الظروف المحيطة بإنتاجه وأسباب هذا الإنتاج ويصير قابلا للبقاء على مر الزمن.

فهذه الدهشة الشكلية من أول العناصر القابلة للموت والمحو عندما تخرج من بيئة إنتاجها المباشرة عن طريق الترجمة أو عن طريق اختلاف العصر، ولذلك لا بد من وجود بنية عميقة للنص تعضد هذه الدهشة وتمثّل لها تربة تمكّنها من الإنبات ومدّ جذورها في مختلف الأماكن والأزمنة.

ومن الأمثلة على هذه الدهشة الشكلية ما نجده في معظم صفحات الهايكو العربية على الفيسبوك، ويتمثل في أن يتم تقديم وصف ما بطريقة تغريبية، ثم يتم في السطر الثالث اسم الموصوف لنفاجأ بأنه كائن موجود في بيئتنا ولا نراه بهذه الطريقة التغريبية. أي أن الدهشة هنا دهشة شكلية ناتجة عن تقديم الوصف على الموصوف دون رؤية جمالية متفردة.

ومن وجهة نظري، القصيدة بهذا الشكل ما هي إلا مسودة سطر أول من قصيدة هايكو لم تُكتَب بعد. وسأضرب مثالا افتراضيا كي لا يغضب أصحاب أمثالِ هذه النصوص:

تتجمع القصاصات عليه

بألوانها المتضاربة

مكتبي القديم

هل يحتوي هذا النص على حالة إنسانية أو حتى حالة كائنية مكتملة ومتبلورة؟ أم أنه مجرد مسودة نص لم يكتمل أو يتبلور؟

من وجهة نظري، الدهشة الحقيقية الأصيلة نابعة من الموقفين اللذين من المفترض أن يتجسدا بشكل متداخل في قصيدة الهايكو، ولا وجود لمشهد واحد في الهايكو. وسأحاول هنا أن أبلور هذا المثال الافتراضي في نص هايكو قابل للوجود في حياة قارئ المستقبل:

القصاصات المتضاربة

على مكتبي القديم

تشتاق لأن تجتمع فيّ

فهنا توجد حالتان: حالة القصاصات المتضاربة التي تسجل لقطات متباعدة من حياة صاحب المكتب أو الصوت في القصيدة، وحالة الصوت ذاته الذي يدرك تضاربها ويدرك رغبتها في التجانس أو التآلف، ولا يحدد لنا موقفه

منها، فيركز النص على لحظة إبصار التضارب وإبصار الرغبة في التوفيق بين اللحظات المختلفة من تاريخه. ويمكننا أن نعيد صياغة هذه الهكيدة لنضيف لها بُعدا آخر يُبرز موقف الصوت من هذه القصاصات:

قصاصات متضاربة على مكتبي

تشتاق لأن تجتمع فيّ

ولا أعرف كيف أستضيفها!

ففي هذه الصياغة، تم إثراء النص بحيث يعبر عن حالات الكثير من البشر في نظرتهم للزمن ونظرتهم لتاريخهم الشخصي وحيرتهم أمام هذا الزمن وهذا التاريخ، وورطة الإنسان المعاصر الذي يعيش حياة متسارعة تجعله يتعامل مع حياته الماضية كما لو كانت ملفات منفصلة يتم الاحتفاظ بها في مجلدات مختلفة على الهارد ديسك الافتراضي في ذاكرته أو قلبه.